لندن ليست بعيدة عن الفضاء البرتغالي:

مونيكا علي تبحث في «زرقة الينتيجو» عن الشمس والندم والحزن في اقليم برتغالي بعيد

ابراهيم درويش*

■ مونيكا علي في روايتها الاولى «بريكلين» 2004، لاحقت شخصية فتاة بنغالية في شرق لندن، خروجها من معطف ذكرياتها في بنغلاديش ومعطف زوجها الحالم ببناء مجد، البقاء في لندن، او العودة الى بلده الاصلي، ويظل يبني قصورا من رمال في عمارة سكنية مكتظة بحيوات كثير من المهاجرين والحالمين مثله.

تبتعد مونيكا علي في روايتها الثانية عن لندن وسكان شرق لندن من الجالية البنغالية لتبحث عن السماء الزرقاء في قرية بعيدة في البرتغال، في مركزها كاتب انجليزي غريب الاطوار (ستانتون) وعائلة انكليزية اخرى مفككة، حيث يقيم الكاتب علاقة مع الام كريسي والبنت روبي، فيما يعيش الاب تشاينا عامله الخاص من الشرب والكسل. في رواية «زرقة الينتيجو» والتي قد تترجم ايضا بحزن الينتجيو، خاصة ان الازرق احيانا يستخدم للتعبير عن الكآبة والحزن.

في هذه الراوية التي تحتفل بالمكان البعيد والحيوات المتشظية، والاحلام المكسورة، لا يغيب العراق وحرب بوش على الارهاب عن نقاشات سكان القرية. فالقرية وان وقعت في «افقر اقليم في افقر بلد» في الاتحاد الاوروبي الا انها عن العولمة، والرحلة، والسياحة، والبحث عن فرصة عمل اقتصادية في دول الاتحاد الاوروبي الغنية، وعن المهاجرين المؤقتين الذين يعبرون الاقليم في طريقهم للشمال الغني. والرواية وان ابتعدت مكانيا وجغرافيا عن لندن وجاءت كثافتها اقل من الرواية الاولى لعلي الا انها عن حيوات متداخلة في المكان، فهي عبارة عن سلسلة من المونتاجات جمعت بينها الكاتبة بخيط رفيع هو الفقد والامل والحلم، والعودة. للقادم الى القرية او البلدة الخيالة ماما روزا تفاجئه بقايا الحياة الرعوية التي لا تزال البلدة تحتفظ بها، الحمير، والرعاة، والبساتين، والاطفال الذين يسرقون البساتين المليئة بفواكه الصيف. وما يميز البلدة هو كثرة الرجال العجائز، الذين يتطوحون في الشوارع، يهربون من حر الشمس الى ظل الاشجار، او يعبرون الشارع جماعات مسببين ازمة في السير او يذهبون الى مقهى فاسكو اما النساء العجائز فهن في البيت يكنسن وينظفن. تبدأ الرواية بشريط استعادي يسرده العجوز جاواو (84 عاما) يتذكر فيه صديقه الشاب روي الذي عارض حكومة سالازار الفاشية، ومع الاستعادة حديث عن العمال القادمين. وهناك الكاتب الروائي الانكليزي ستانتون، الذي يحاول العمل على معالجة حياة الشاعر الانكليزي ويليام بليك ولكنه لم يكن قادرا على التخلص من حياته وذكرياته في شمال لندن، ويبدو الكاتب غامضا، موزعا، يعيش حالة من الاحباط يدخل في علاقة مع عائلة «بوتس»، الزوجة كريسي، التي تحضر اليه كل يوم وعندما يمل منها يقيم علاقة مع ابنتها روبي، التي تطلبها دار لبيع اللذة في بلدة قريبة. ويقنع الكاتب نفسه هنا ان روبي هي التي بدأت التحرش به اولا. الاحباط، والحر والكحول/ الخمر عامل يدفعه نحو هذه العائلة المفككة التي تعيش في بيت فوضوي مع الاغنام. كيف دخل ستانتون جو العائلة، كان عندما تعرف على الابن الاصغر فيها جي، وهو الذي قاده الى والده تشاينا، الذي يعيش في احلامه هو الاخر، احيانا ينام اليوم كله تحت تأثير الخمر، وعندما يقول تشاينا لستانتون، «البيت بيتك، وخذ اي شيء تريده» يبدأ علاقة مع الام ومن ثم الابنة. تتطور العلاقة عندما تحمل روبي وتقوم بعملية اجهاض غير شرعية، حيث تهدد الام كريسي بتقديمها للمحاكمة بتهمة القتل. وهناك فاسكو، صاحب القهوة او الحانة الكبيرة في البلدة، والذي يفاخر على ابناء بلدته انه كان اول من خرج على الطور، حيث يتذكر ان جدته قالت له «كل واحد يعيش حياته» اي ما كتب له وعليه، ولكنه يحدث نفسه انه كان اول ابناء القرية الذين خرجوا عن طور «المكتوب» وهاجر عندما كان شابا حدثا الى امريكا، حيث عمل في المطاعم، يقشر البطاطا، ويبشر الجزر، ويقلي البيض والنقانق، قبل ان يتعرف على زوجته التي حملت وماتت في اثناء الولادة. يتذكر فاسكو حياته المكسورة في امريكا وهو يحاول اقناع نفسه، بتناول ما تبقى من حلوى صارت قديمة في الفاترينا، هل يتناولها قبل النوم ويملأ معدته الكبيرة ام يتركها، وهل يأكلها مع القهوة ام مع الويسكي او البيرة. ما يشغل بال فاسكو هو منافسته لادواردو. قائمة الطعام التي تقدمها قهوة فاسكو لا تثير الشهية. الكاتب ستانتون يتناول في المطعم دائما السمك الذي يشعر انه يحدق به وهو يأكل.

تريزا، فتاة في العشرين من عمرها، ذكية ومليئة بالحياة، تقوم بعدة اعمال لمساعدة والدتها الارملة وشقيقها. وتخطط للخروج من الحياة الكئيبة والساكنة في البلدة من خلال البحث عن فرصة عمل في لندن كحاضنة، وهي تقلب صفحات جريدة ارسلتها وكالة حاضنات من لندن تشعر انها رهينة لامها وعائلتها واصدقائها، ولكن علاقتها مع الميكانيكي الشاب والوسيم انطونيو، تعني انها قد تفقد بكارتها، والعلاقة تتحول من حلو الى مر فيما بعد.

وهناك صوفي وهيو، الخطيبان اللذان عقدا قرانهما حديثا ويشعران بتوتر في العلاقة ويحاولان اصلاح ما يمكن اصلاحه في هذه السياحة في اقليم الينتيجو. ايلين وزوجها، الذي يعمل مزينا للكعك في مصنع للحلويات يعيشان عزلتهما الخاصة، فريتشارد الذي يتعامل مع السفر باعتباره فرصة للتعلم والتعرف على حياة الاخرين، يقضي نهاره وليله بين ادلة السفر والكتب ويبحث في معلومات لا تغني ولا تسمن من جوع حسب ايلين التي تسايره وتحتمل اهتماماته المملة. وايلين تعيش ازمة منتصف العمر، واعراض الطمث، التي تقرأ عن اسراره والمعلومات الخاطئة التي تحملها النساء عنه عبر الانترنت. زوجها يعاني في كثير من الاحيان من صداع نصفي، ولكن هذا لا يمنعه من التخطيط وبناء الاستراتيجيات الكبيرة، وخزن المعلومات عن قبائل تعيش مثلا على حدود بورما او معرفة عدد سكان احياء الصفيح الذين يتوزعون حول مدينة كيب تاون في جنوب افريقيا. ونلحظ التوتر في العلاقة بين ايلين وزوجها من خلال اكتشاف ان ابنهما ريتشارد شاذ. ايلين التي تكشف ايضا انها من الطبقة المتوسطة التي تعيش في بيوت البلدية ولكن ليست كتلك البيوت المكتظة، تشير الى ان زوجها ليس غاضبا من ريتشارد في زمن لم يعد فيه الشذوذ عيبا، خاصة بعد سماح القانون بزواج الشاذين ولكنه اي الزوج غاضب منها. وهناك ايضا البطل او نجم القرية ماركو الفونسو رودريغو، الذي يعود الى القرية حاملا المال لبناء فندق يكلف ملايين الدولارات ولكن ماركو العائد قد يكون مفلسا، ولم يحقق حلم المهاجرين العائدين بالثروة.

مونيكا علي

تبدو الحكايات والشخصيات في رواية مونيكا علي الثانية متوزعة على همومها الخاصة، فالكاتبة لا تنقصها القدرة على السرد بل السخرية عندما تتحدث عن العجوز التي تضرب الصبيان الذين يتجرأون على بستان المشمش لدرجة انها ضربت صبيا على رأسه وجعلته يفقد القدرة على تحدث اللغة البرتغالية، وعوضا عن ذلك صار يتحدث الاسبانية، مما اثار خوف جي، التي تقول له امه انه اصبح مثل البرتغاليين، يلعب في الشوارع، ويبول على نفسه خوفا من العجوز. ومع ان الحكايات ترتبط كما اسلفنا بعامل المكان الا ان الحفلة الاخيرة التي يجتمع فيها كل شخوص الرواية تحت سماء الينتيجو الزرقاء، تبدو حفلة متعجلة، تحاول من خلالها مونيكا بناء رابط بينهم. والملاحظ ان الرواية على سردها الجميل ودخولها في حياة الشخوص القلقة والاحلام المبعثرة الا انها تدور على السطح ويظل السرد خجولا، لا يرغب في الكشف عن دواخل النفوس والدوافع في الابطال. وهنا ايضا نقطة اخرى وهي ان سكان البلدة البرتغالية وان حضروا الا انهم ظلوا في خلفية الاحداث، واكتفت الكاتبة برسم ملامحهم عبر نمطيات كل بطل عن الاخر. تبدو مونيكا علي واثقة من نفسها عندما تسرد حيوات شخصياتها الانكليزية، ولكنها تتركهم لقدرهم عندما تتطور قصصهم. انها رواية مطبوخة على عجل، مثل ملاحظة جاواو الذي تحدث عن نضج البندورة قبل اوانها مما يعني انها لن تكون بنفس المذاق لو تركت تنضج بناء على شروط الطبيعة والشمس.

وعلى الرغم من بعدها عن بريكلين في لندن الا انها تعيد اللعب بطريقة اخرى على وتر القضايا التي شغلتها في العمل الاول، الزوار الذين يريدون الاستثمار في مشاريع وباموال مشبوهة، اثر القادمين على براءة وسلامة المكان، وكذلك الاثار الاقتصادية على السكان، وفقدان التواصل بين جماعة سكانية واخرى بسبب عدم الاندماج او الاصول الاجتماعية. هنا في هذا المكان الذي قدم فضاؤه الجميل وان كان مملا يظل سجنا لا يمكن لابطال التحرر منه، فالنسبة لفاسكو فالهروب من المكان لا يوجد الا في الخيال، حيث يتذكر ويعيد تذكر ايامه في امريكا.

ما يميز هذا العمل ان الكاتبة لم تعط مساحة كافية او فضاء للسرد او الاشخاص لكي يسردوا حيواتهم، فاحيانا يكتفون بالتلميح دون التصريح وتغيم الكاتبة الكثير من المعلومات التي قد تفيد في بناء الشخصيات. ماما روزا هي مكان الفنتازيا للبحث عن حياة جديدة، وهي المكان الذي تتحطم فيه الاحلام، ليس طبعا للقادمين اليها بل سكانها، ويبدو هذا من ذكريات العجوز في مفتتح العمل، حيث يستعيد حياته المقلقة في هذا المكان الجميل الهادئ، وينتظر عودة ماركو الذي يرمز لهذا العالم المتغير، ومع حضوره يتكسر الحلم اخيرا لانه لم يتحقق. وكما قلنا فالرواية ليست عن السكان ولكنها تسخر من فكرة السياحة والرحلة، التي يستعيض فيها المسافرون عن احباطهم بحياتهم القلقة بقلق واحباط جديد.

مونيكا علي تعتبر واحدة من الجيل الشاب في الرواية الانكليزية وحضرت في قائمة «غرانتا»، ودخلت العالم الروائي عام 2004 براويتها «بريكلين» التي رشحت لاكثر من جائزة، بوكر وجائزة جورج اورويل للكتابة السياسة وجائزة كتاب الكومنولث، وحازت على جائزة نقاد الكتاب الوطني الامريكية ورشحت لجائزة صحيفة «لوس انجليس» للرواية الاولى. تعيش مونيكا علي في لندن مع زوجها وولديها وتعمل على روايتها الثالثة.

---

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

Alentego Blue
Monica Ali
Doubleday
London/2006

عن «عقيق مصري» لشاكر لعيبي:

الشاعر يستشير الوجود

محمود عبد الغني*

■ رأيته في الرباط يبدأ صباحاته بالمشي المتعثر. بالضحك الصاعد من صدر متبوغ بالقهوة. بتذكر الحاضر. بمكالماته الهاتفية المنفعلة: «أنا شاكر لعيبي، حروف إسمي كذا....طائرتي يوم كذا...أنا قادم من جنيف وسأعود إليها»... ويكمل صباحاته في التجوال في المكتبات. كان ذلك أول لقاء مع مادح البساطة وقصيدة النثر بقافية. اقتراب أول من البدوي الأحمر الثاني (الماغوط هو الرائد..) عندما أكون مع شاعر عراقي دائما أتذكر كلمة محمود درويش التي قالها في حق سعدي يوسف، وهي هنا تصدق على لعيبي: «لكي تكون شاعرا ينبغي أن تكون عراقيا». ربما لأن ميزة الشاعر العراقي، والأديب العراقي عموما، هي حاجته الدائمة إلى التيه والقلاقل والبرك والفسيفساء التي تشكل شعبه.

وأيضا كان شاكر، يبدأ صباحاته بالصمت، إلى درجة أنك يمكنك أن تسمع صوت الشعر وهو ينمو على وجهه.

وفي حوار دار بيني وبينه حول التطورات الخطيرة الحالية في الشعر العربي، وجدته يتحدث من خلال مفهوم «الأزمة». قد يكون هذا الموقف صادرا عن آلية التجريب التي لا تهدأ لدى لعيبي. وقد يكون موقفا مستعادا وصدى لمواقف قديمة في الشعر والنثر. وتحديدا صدى لذلك الإحساس الساخر الذي أعلنه الشاعر الفرنسي «مالارميه» سنة 1894: «لقد عبثوا بقوانين الشعر». وعلينا أن نؤكد أن التعبير عن الرضى الشعري هو استحالة ثقافية لا يمكن أن تصدر عن شاعر لا يكف عن إصدار كتب منتقمة des livres vengeurs ثم يصمت الشاعر لكي يصغي إلى صوت الريح في أشجاره. أو إلى صوت المطر في الداخل (مثل إبراهيم نصر الله الذي منعت أعماله الكاملة في الأردن. دائما تبدأ التعاسة غذا). والشاعر أيضا يصمت لاستشارة أحد الشعراء في ذاكرته (في الغالب ريلكه الذي ترجمه شاكر، أو روني شار الذي طرح بخصوصه استفهاما كبيرا: «هل يمكن ترجمة روني شار؟ أو شعراء عرب صادقهم وقرأهم وكتب عنهم).

وريلكه وشار، إضافة إلى آخرين، هما أعضاء لجنة شعرية متعددة اللغات، يستشيرها شاكر أينما حل عبر الهاتف الخصوصي، والتكاليف ضئيلة لأن المكالمة محلية، بحكم إقامة الشعراء في مملكة محدودة المساحة والعدد.

في ظهيرة الرباط، يختفي لعيبي. ربما يكون يتغذى ويسمع نشرة الأخبار.

و غالبا ما يفعل ذلك وقوفا. ثم يخرج وراء السمكات السهلة. وهنا المهام الشاقة التي تنضاف إلى الأبواب المسدودة في الثقافة والشعر والسياسة في بلد عربي. كل هذه العناصر النفسية والوجودية موجودة في (عقيق مصري)، سواء من خلال الضمير النحوي آنا، أو من خلال الضمائر النحوية الغيرية الأخرى. وهذا عنصر حاسم في تلقي النص الأدبي، شعرا ونثرا. ولا مجال هنا إلى التذكير باستنتاجات النقاد والدارسين الذين احتكموا إلى هذا المعطى البنائي. إن طريقة تلقينا لقصيدة بضمير أنا تختلف تماما عن تلقينا لنفس القصيدة بضمير نحوي آخر. بكل بساطة لأن العرف جرى أن تربط «أنا» باللاتخييل وضمير هو بالتخييل. وهنا مكمن المزالق الخطيرة.

في «عقيق مصري» يتخذ الضمير «أنا» شكلا سيرذاتيا. وينبغي هنا ألا نبالغ على هدي من النقد الأدبي، في مسألة التعارض المشار إليها، مما يساعدنا على عدم التهيب من تفكيك وإعادة تركيب القصيدة (وللمجموعة عموما). وكم من ضمير غائب في «عقيق مصري» أدى وظيفة ضمير المتكلم.

لا يريد شاكر لعيبي أن يرفق بنفسه، كما نصحه سعدي يوسف في التقديم الذي وضعه للمجموعة: «وها أنتذا من جديد بين الرفاق والرفقة، فأرفق بنفسك». كيف يرفق بنفسه وهو لا يكف عن العودة إلى الينابيع. تجوال، تجوال وعصا الشاعر لا تشيخ من فرط التجوال. والتجوال، مثل الصباح، ينبغي أن يبدأ بالحب، فصباح الشعراء يجب أن يبدأ بالحب.: «فمذاق الصباح يحدد مذاق النهار كله» (صلاح ستيتية). فحتى دراجته الهوائية يبادلها الحب في الصباح. هل الدراجة الهوائية من فصيلة الشعراء؟ هل الحمام الزاجل أيضا؟ (ص,97,24,11) وذلك مغلف برثاء وتمجيد للبطولات الإنسانية اليومية في مواجهة مأساة وملهاة الوجود.

قد نجد رثاء للأرصفة المفتتة، والحدائق التي ضاعت. كانت ولم تعد. ولا ينبغي أن نتفهم أن ذلك يمر دون عقبات.الشاعر وحده يعيها بمجرد أن يلتفت إلى محيطه.لم يعد العالم هو العالم،وذلك ما يجعل «عقيق مصري» لوح زجاج شفاف يقف وراءه شاكر لعيبي، وما يحدث لنا هو أجمل وأفضل ما يمكن أن يحدث للقارئ: نحن لا نقرأ «عقيق مصري» نحن أيضا نقرأ شاكر لعيبي.

عندما يكتب لعيبي عن المرأة الحبيبة، عن المدينة، عن العالم، ليس فقط هو من يخلقهم، بل يتواضع أمامهم وكأنه يستشيرهم ويطلب رأيهم في ما يفعل. فأفعاله يمكن أن تصبح موضع اتهام. إنه شاعر خائف من هذا العالم الذي أصبح بلا حدود. فتجوال الشاعر وانتقالاته من بلد إلى بلد، ومن أشياء إلى أشياء رغم متعتها فهي قاتلة، فيسعى الشاعر إلى التخفف منها. ما العمل إذن؟ هل على الشاعر أن يخاطب هوية مخصوصة بلغة معينة؟ أم عليه أن يخاطب الفسيفساء ويجمع في سلته كل تلك الهويات القاتلة (أمين معلوف) التي عرفها وجربها واختبرها طولا وعرضا. وذلك من صميم أعمال الشاعر.

ربما آخر ما وصل إليه شاكر لعيبي كشاعر: الجملة المشدودة التي تستشير موجودات الكون، الشفافية (الزجاج الذي يقف وراءه لعيبي قلقا ومرتعشا رغم أنه يضع قبلة)، استئناف الأفكار، الحفر على الحافة، يقظة النائم الذي لا ينسى عمله الناقص في سهرة البارحة.

شاكر لعيبي (القدس العربي)

---

* شاعر من المغرب

الشيوعيّ الأخير لا يعملُ مترجِماً

سعدي يوسف

كأنّ الشيوعيَّ الأخيرَ يُلِمُّ باللغاتِ جميعاً ...
كلَّما حلَّ بلدةً تَعَلَّمَ فيها ؛
وهو يُقْسِمُ أنه تعلَّمَ سبعاً في مدارسَ صعبةِ المِراسِ ،
وأنّ الطيرَ تفهمُ ما يقولُ ... إلخْ ...إلَخْ
وأنّ فتىً من فنزويلا أرادَ أن يسجِّلَهُ في الأوبرا !
قالَ إنهُ لأفصحُ من فُرسانِ قشتالةَ ...
الحديثُ يطولُ!
.....
.....
.....
اليومَ
أبصرتُهُ وقد تَلَبَّكَ في المقهى ...
– أتدري؟
أرادوني أكونُ مترجِماً ...
* بكليةِ الآدابِ ؟
* لا . في المعسكرِ ...
* الكلامُ غريبٌ!
*إنني ذاهبٌ غداً إلى الشطرةِ الخضراءِ
لا من معسكرٍ ، ولا أمريكيينَ ...
*والطيرُ ؟
والغناءُ؟
*سأنساها إلى أن أرى ندىً ينَثُّ علينا ،
والحديثُ يطولُ ...

لندن 4,7,06

الشيوعيّ الأخير يرفضُ عملاً

قال الشيوعيُّ الأخيرُ :
حقيقةً ، إني بلا عملٍ ... ومنذُ سنينَ أبحثُ ؛
غيرَ أني أرفضُ العملَ الذي حدّثتَني عنهُ ...
× الصباغةُ مهنةٌ!
– لكنها ليست تناسبُني ...
كأنكَ لم تصافحْني ، ولم تعرفْ هواءَ رفوفِ مكتبتي ،
كأنك لم تكن يوماً رفيقي في الخَليّةِ !
(نحن كنا آنذاكَ نقودُ إضراباً ... أتذكرُ؟)
كيفَ يا ولدي ...
أصَبّاغَ الوجوهِ تريدُني ؟
لو شئتَ أن أمضي لأصبغَ كلَّ بيتٍ في العراقِ مضيتُ ...
لكنْ كيفَ أصبغُ أوجُهاً خَزِيَتْ
وأقنعةً
وحَشْداً من رؤوسِ الوحلِ والروثِ الطريِّ؟
تريدُني أن أُخْفِيَ الأشياءَ ؟
أنْ أُرخِيَ القناعَ حقيقةً ؟
أن أخدعَ الأبصارَ بالألوانِ ؟
.....
.....
.....
حقّاً ...
نحن نمشي في حديقةِ ساحراتِ الموتِ ؛
لكني الشيوعيُّ الأخير ...

لندن 14,07,06

الشيوعيّ الأخير يتطوّعُ ...

أمضى الشيوعيُّ الأخيرُ ، الليلَ ، معتركاً مع الجاثومِ ...
كانت طائراتٌ تخطفُ الأطفالَ من نُعمى أسِرَّتِهِم ، وتعلو في الهواءِ
لتقذفَ الأطفالَ
نحوَ بيوتِ أهليهِمْ ،
وكان الوردُ والرمّانُ يسترُ وجهَ حيِّ السُّلَّمِ المنخوبَ بالطلَقاتِ ...
ثَمَّ مساحبٌ للمَرْكَباتِ العسكريةِ
ثَمَّ مدافعٌ طلعتْ من البحرِ
السماءُ ثقيلةٌ حمراءُ
شمسٌ في الهواءِ القرمزيِّ تكادُ تذوبُ ...
لُبنانُ المُوَكولُ يدفعُ الأمواجَ مُدَّرِعاً
ويغطِسُ في القرارِ ...
.....
.....
.....
يقولُ سِ :
كأننا في 82 ...
يا ما أعذبَ الذكرى!
تَطَوّعْنا
وقاتلْنا
وكنّا نحرسُ الرمّانَ في بستانِ حَيِّ السُّلَّمِ ...
.....
.....
.....

الأعوامُ أيّامٌ
وهاأنذا أُثَبِّتُ خطوتي
متطوّعاً
وأسيرُ منحدراً مع الأنهارِ ...

لندن 16,07,06